

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله. وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها. ونظراً إلى ذلك نقدم فصلاً عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن الظروف التي بعث فيها محمد ﷺ.

موقع العرب:

العرب لغة: الصحارى والقفار، والأرض المجذبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب. كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطناً لهم.

وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقاً الخليج العربي وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية، وجنوباً بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويسيطروا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً في جميع الشؤون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم. وتلتقي بها برأ وبحراً. فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة أفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق الأوسط

والأدنى. وتفضي إلى الهند والصين، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بجزراً، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً.

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطاً للأمم ومركزاً لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

١ - العرب البائدة: وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها.

٢ - العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتسمى بالعرب القحطانية.

٣ - العرب المستعربة: وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل، وتسمى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة - وهي شعب قحطان - فمهداها بلاد اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان:

أ - حمير، وأشهر بطونها زيد الجمهور، وقضاة، والسكاسك.

ب - كهلان، وأشهر بطونها همدان، وأنمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجدام، والأزد، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام.

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن، وانتشرت في أنحاء الجزيرة، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام.

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

١ - الأزد: وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقباء.

فساروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلوها الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال. وهاك تفصيل الأماكن التي سكنوا فيها بعد الرحلة نهائياً: عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذو قار، ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها. ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.

وانتقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه في ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر الظهران، ثم افتتحوا الحرم فقتلوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

ونزل عمران بن عمرو في عمان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أزد عمان، وأقامت قبائل لفر بن الأزد بتهامة، وهم أزد شنوءة.

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الفساسنة. نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل تنقلهم إلى الشام.

٢ - لحم وجدام: وكان في اللخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالخيرة.

٣ - بنو طيء: ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عُرف الجبلان بجبلي طيء.

٤ - كندة: نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بضمير موت، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجد، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه - وهي قضاة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السهولة من مشارف العراق^(١).

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من بلدة يقال لها «أر» على الشاطيء الغربي من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد^(٢).

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١١/١ - ١٣ وقلب جزيرة العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ - واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجع عندنا في هذا الباب من حيث الدليل.

(٢) تفهيم القرآن للسيد أبي الأعلی المودودي ١/٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها (١) وقدم مرة إلى مصر، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً بزواجه سارة ولكن الله ردّ كيده في نحره، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله، حتى أخدمها ابنته (٢) هاجر؛ اعترافاً بفضلها، وزوجتها سارة إبراهيم (٣).

ورجع إبراهيم إلى فلسطين، ورزقه الله من هاجر إسماعيل، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بها إلى الحجاز، وأسكنها بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعها عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت قوتاً لهما وبلاغاً إلى حين. والقصة معروفة بطولها (٤).

وجاءت قبيلة يمانية - وهي جرهم الثانية - فقتلت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة. وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يثيب، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك (٥). وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامثال هذا الأمر ﴿فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا هو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾ [١٠٣ - ١٠٧ : الصافات].

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة،

(١) نفس المصدر ١٠٨/١.

(٢) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة للقاضي محمد سلمان المنصورفوري أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون. انظر رحمة للعالمين ٣٦/٢ - ٣٧.

(٣) نفس المصدر ٣٤/٢ وانظر في تفصيل القصة: صحيح البخاري ٤٧٤/١.

(٤، ٥) انظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ٤٧٤/١ - ٤٧٥.

وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحق، لأن البشارة بإسحق ذكرت بعد سرد القصة بتامها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعاً^(١) وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم، وأنفسهم وأعجبهم زوجته امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالها، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى، وهي ابنة مضاض بن عمرو، كبير جرهم وسيدهم^(٢) .

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا الزواج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالها فأثنت على الله، فأوصى إلى إسماعيل أن يشب عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقي إسماعيل وهو يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤها بعد فترة طويلة من الزمن، فلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، الولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا الكعبة، ورفعوا قواعدها، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثني عشر ولداً ذكراً^(٣) وهم: نابت أو بنالوط، قيدار، وأدبائيل، ومبشام، ومشماع، ودوما، وميشا، وحدد، وبيتا، ويطور، ونفيس وقيدمان، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط في شمال الحجاز، وكونوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها، واتخذوا البتراء عاصمة لهم، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان ففقدوا عليهم، وقد رجح السيد سليمان الندوي بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن

(١) ج ١/ ٤٧٥-٤٧٦ . (٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ . (٣) نفس المصدر .

ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم في تلك الديار^(١).

وأما قيदार بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمك ويقول: كذب النسابون، فلا يتجاوزة^(٢). وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان، مضعفين للحديث المشار إليه، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أباً بالتحقيق الدقيق^(٣).

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار - قيل لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأنمار وربيعة ومضر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: أسد بن ربيعة، وعنزة، وعبد القيس، وابنا وائل - بكر، وتغلب - وحنيفة وغيرها.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قيس عيلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر. فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو غطفان، ومن غطفان: عبس وذبيان، وأشجع وغني بن أعصر.

ومن إلياس بن مضر: تميم بن مرة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمه وبطون كنانة بن خزيمه، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، من أشهرها: جمح، وسهم، وعدي، ومخزوم، وقيم، وزهرة، وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزي بن قصي، وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم ﷺ^(٤)

قال ﷺ: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل

(١) انظر تاريخ أرض العرب ٢/٧٨ إلى ٨٦.

(٢) انظر الطبري ج ٢/١٩١ - ١٩٤ والأعلام ٥/٦.

(٣) رحمة للعالمين ج ٢/٧، ٨، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧.

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤، ١٥.

كنانة، واصطفي من بني كنانة قريشاً، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفا في من بني هاشم (١).

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلني من خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» (٢).

ولما تكاثروا أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب، متتبعين. مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر، قصبه اليمامة. وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق، فالأبلة فهيت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تسكن بكرأ. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين، إلى ما ينتهي إلى الحرة.

وسكنت ثقيف بالطائف، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس، وهي على الجادة بين مكة والبصرة.

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، بينهم وبين تيماء ديار بخت من طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران.

وبقي بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب، فجمعهم، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم (٣).

(١) رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع، باب فضل نسب النبي ﷺ ٢٤٥/٢ والترمذي ٢٠١/٢.

(٢) رواه الترمذي، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ٢٠١/٢.

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٥/١ - ١٦.